

مجلة الجدار الحر

3 نوفمبر 2007

شتات اليهود يفجر أزمة في مصر

الموضوع: تقارير متنوعة

في جلسات مثقفي القاهرة الآن، كما في صفحتها لأحدث إلا عن كتاب واحد، يتصدر واجهات المكتبات حتى إنه بات خلال أيام قليلة الكتاب الأكثر مبيعا. الكتاب أصدرته دار الشروق تحت عنوان لافت ومثير هو 'شتات اليهود المصريين' لكن الأمر الأكثر إثارة بخلاف العنوان يرتبط باسم مؤلفه جونل بينين، المؤرخ اليهودي الأمريكي الذي كان طرفا في معارك وحكايات كثيرة. الكتاب في عبارة واحدة لا يمكن إلا أن تصفه بالكتاب الجريء الذي يقتحم الكثير من حقول الألغام ويعيد أمورا ظلت من 'تابوهات' الحياة السياسية والثقافية في مصر. الفكرة المحورية في الكتاب بحسب الدكتور خالد فهمي المؤرخ المرموق الذي قدم للكتاب تؤمن بأن الفكر الصهيوني والخطاب القومي في مصر قد اشتركا معا في قمع اليهود المصريين وإنكار وجودهم! ويقوم الكتاب بالإضافة إلى ذلك على فرضية رئيسية يعلن عنها بينين في الصفحات الأولى عبر اقتراح يقدمه للقارئ وهو الحديث عن معالجة نقدية ذات نهاية مفتوحة لزوال الطائفة اليهودية من خلال 3 معطيات:



المعطي الأول أن أقلية ضئيلة من اليهود المصريين كانوا نشطاء صهاينة حتى بعد العام 1948، والمعطي الثاني هو أن معظم اليهود الذين غادروا مصر بعد عام النكبة خصوصا الذين كانت لديهم موارد مالية كافية لم يذهبوا إلى إسرائيل،

أما المعطي الأخير فيقوم على التأكيد على أن اليهود المصريين أينما ذهبوا يعيدون تشكيل أنماط من الحياة الطائفية والممارسات الجماعية التي تحافظ على رابطة بينهم وبين مصر' مخالفة للكثييات علي الجانبين يري بينين أن هذه المعالجة التي يقترحها تخالف السرد التاريخي القومي الإسرائيلي الذي يضع التجارب الحياتية لليهود المصريين بأكملها في نطاق مسيرة المشروع الصهيوني' كما يلاحظ كذلك أن هذه المعالجة أيضا لا تتسجم ولا تتطابق مع السرد التاريخي القومي المصري الذي يفسر زوال الطائفة اليهودية المصرية من خلال المؤامرات الصهيونية. لكن الجانب اللافت للنظر في منهج الكاتب والكتاب جرأة صاحبه التي تدفعه لاتهام عدد كبير من المؤرخين الذين عالجوا أوضاع اليهود في مصر بكونهم 'معادين للسامية'.

ويستدرك قائلا: 'ليس هناك من شك أن تهمة معاداة السامية عادة ما تستخدمها إسرائيل ومؤيديها لإسكات النقد الموجه ضد انتهاكات إسرائيل للحقوق الفلسطينية وسياساتها في الضفة الغربية وقطاع غزة، وهذا بالتأكيد ما لا يقصده جونل بينين، الذي يؤكد أن الغالبية العظمى من المصريين الذين كتبوا عن اليهود المصريين يواصلون استخدام صور ذهنية شائعة معادية للسامي.

المتابع لما كتبه بعض الصحف المصرية عن الكتاب قد يجد فيه بعض مبررات التهليل له، فالكتاب ينبغي أن تكون المضامين التي تعرض لها اليهود في مصر جاءت كنتيجة لسياسات لا سامية موجهة ضدهم من قبل الحكومة المصرية، كما يدعي الكثير من الصهاينة الذين يتجاهلون واقع أن مصر كانت في حالة حرب مع إسرائيل، هو يضع الأمور في سياقها التاريخي الذي لا يمكن فهمها بدونها، فالمضامين التي تعرض لها يهود مصر أثناء وبعد حرب 1948 كانت لأسباب سياسية والدليل على ذلك تأثيرها من حيث القوة أو الضعف بمجريات الأمور في فلسطين. سوزانا نقطة التحول يمكن القول إن مشكلة اليهود في مصر بدأت مع وقوع 'عملية سوزانا' الشهيرة أكثر ب' فضيحة لافون' والتي تمثل نقطة مركزية في الكتاب، ذلك أنها كانت نقطة تحول أساسية في حياة يهود مصر أو كما يصفها بينين- أبرز حدث سياسي في حياة الطائفة اليهودية في مصر من عام 1949 إلى عام 1956- في هذه العملية تورط يهود مصريون في أعمال تخريب وتجسس ضد مصر، نظمها المخابرات الحربية الإسرائيلية، الأمر الذي أثار أسئلة جوهرية بشأن هويتهم وولاءاتهم.

ويشير بينين إلي أن الهدف الإسرائيلي من العملية كان إقناع الحكومة البريطانية التي كانت في مفاوضات مع مصر بشأن انسحاب الحامية البريطانية من القناة بأن مصر دولة متطرفة.

ولفت بينين النظر إلي أن العديد من وثائق هذه العملية قد اختفي تماما أو دمر علي يد حكومات إسرائيل وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، مما جعل عدم التيقن من العديد من الحقائق حولها جعلها فكرة متكررة الظهور في الثقافة السياسية الشعبية لكل من مصر وإسرائيل.

ويتهي المؤلف في كتابه إلي تنفيذ الادعاءات الصهيونية التي تقول بأن اليهود هرولوا إلي إسرائيل في أول فرصة سنحت لهم، كما ينفي أن تكون الحكومات المصرية المتعاقبة قد انتهجت معهم سياسات لا سامية. سيرة الرجل اللغز قد يفسر هذا العرض الموجز لأهم ما يطرحه مؤلف الكتاب في مقدمته الفواتح المثيرة لشهية القاريء، لكن الأكثر شهوة في حكايات القاهرة حول الكتاب لا يرتبط بموضوعه بقدر ما يرتبط بسيرة مؤلفه وهي سيرة إشكالية بكل المقاييس.

وكما يشير المؤرخ خالد فهمي فإن جونل بينين الأمريكي اليهودي عاش في المستعمرات الصهيونية في إسرائيل لفترة تقترب من ستة شهور في مستعمرة 'ميشمارها إيميك' وهناك تعلم العربية عن أحد أعضاء هذه المستعمرة من العراقيين، وبعد عودته إلي الولايات المتحدة الأمريكية التحق بجامعة بريستون العريقة، كما درس في مركز دراسات الشرق الأوسط وقام بأول رحلة إلي مصر (يروي تفاصيلها في الكتاب في العام 1969)، وتدرجيا وعند عودته إلي إسرائيل بدأ يشعر شعر بالهوة التي تفصل أفكاره عن أفكار جمعية الحرس الشباب الصهيونية التي أنتهي إليها. وفي صيف عام 1970 قرر تماما وبحسب فهمي أن يتخلي عن الصهيونية كمرجع فكري يهتدي به وواصل طريقه العلمي في الجامعات الأمريكية حتي وصل إلي منصب مدير مركز تاريخ الشرق الأوسط في الجامعة الأمريكية بالقاهرة حيث يشغل هذا المنصب منذ سبتمبر 1996 ومنذ ذلك التاريخ والجدال لا يتوقف في أوساط بعض الأكاديميين والمثقفين حول هذا الأستاذ اللغز. ففي صبيحة أيام مايو الماضي بدأ بعض المثقفين يتلقون علي بريدهم الإلكتروني نص بيان ضد جونل بينين يحمل عنوان ' بدأت تظهر بشائر تعيين جونل بينين الصهيوني اليساري/ التطبيع داخل الجامعة الأمريكية في القاهرة، يتضمن النص التالي: ' بدأت تظهر بشائر تعيين جونل بينين الصهيوني اليساري كرئيس قسم دراسات الشرق الأوسط (حاليا) والذي كان يسمى سابقا قسم الدراسات العربية. فلقد بدأت معركة ساخنة بين القسم ومجموعة الأساتذة المعروفين بمواقفهم الوطنية والتقدمية.

أدي هذا الصراع إلي إزاحة الدكتورة نيللي حنا من مجلس النشر من خلال مجلة القسم The newsletter of MESC وقد أصدر عدد من الأساتذة بيانا احتجاجيا علي سياسة النشر التي تعتمد المنظور الإسرائيلي و من الموقعين أسماء كبيرة في الثقافة المصرية بحجم نيللي حنا/ فريال غزول/ جلال أمين وآخرين انتهى البيان لكن شهوة النيمية والجدل حول بينين وعلاقته كانت تتسع، لاسيما أن جريدة العربي الناطقة بلسان الحزب العربي الناصري ذي الخطاب القومي الواضح إلي حد التشدد كانت ساحة لنقاش من نوع آخر حول بينين، فعلي صفحات الجريدة كتب الدكتور رعوف عباس أستاذ التاريخ الحديث في جامعة القاهرة مقالا عن الدور المريب للجامعة الأمريكية، تناول فيه علي حد قوله- التوجه الجديد لبرنامج الدراسات الشرق أوسطية بالجامعة الذي ركز علي إبراز وجهة النظر الإسرائيلية وحدها. وقد تصدي اثنان من الأساتذة المصريين المرموقين علي صفحات الجريدة نفسها للدفاع عن جونل بينين، أحدهما د.خالد فهمي أستاذ تاريخ الشرق الأوسط الحديث بجامعة نيويورك، والآخر د. سامر سليمان أستاذ مساعد الاقتصاد السياسي بالجامعة الأمريكية بالقاهرة.

أهم ما تعرض له الأول هو الإشادة بجونل بينين مؤكدا انحيازه لحقوق الفلسطينيين وتنديده بالسياسة الاستعمارية الاستيطانية الإسرائيلية.

فيما تعرض الثاني للتحليلات التي توردها المجلة التي يشرف عليها بينين في الجامعة الأمريكية، التي تحمل مواقف منحازة لإسرائيل، بأن ذلك مفهوم في الحقل الأكاديمي ألا تحجب تحليلات وراءها مواقف نختلف معها، وداعيا إلي نقاش هادئ وموضوعي حول من الصهيوني ومن غير الصهيوني؟

حكايات من دار الأوبرا إلي المقاهي الأمر المؤكد الآن أن هذا الجدل حول جونل بينين ترك صداه في عملية تلقي الكتاب، لكن قلة منهم تعرف أن الدكتور رعوف عباس كان من بين أكثر المتحمسين لنشر ترجمة عربية للكتاب منذ أن قرأه بالإنجليزية واقترح أن يتولي المشروع القومي للترجمة نشر الكتاب علي أن يقوم بكتابة مقدمته لكن هذا الاقتراح الذي جاء في وقت مبكر وقبل معركة بيانات الجامعة الأمريكية ومقالات صحيفة العربي الناصري وجد معارضة من جونل بينين الذي قال لي حين التقيته في مكتبه بالجامعة الأمريكية الأسبوع الماضي:

رفضت قبول اقتراح بأن يتولي رعوف عباس تقديم الكتاب، لأنني أعتبره كمؤرخ معاد للسامية وهو ابن مثالي لخطاب القومية العربية الذي أقوم بنقده في الكتاب، كما أنتقد المواقف التي يتبناها دعاة هذا الخطاب من اليهود المصريين!

حين أعلنت أمام بينين أنني صحفي يمثل مؤسسة قومية كما أنني من تلاميذ الدكتور رءوف عباس أبدي انزعاجا واضحا لأنه لا يحب الصحف الرسمية وزاد من هذا الانزعاج كوني جئت إليه بصحبة صديق وبلا موعد مسبق غير أنني حين عرضت عليه الخروج، من القاعة احتراما لوجهة نظره وعند طلب تحديد موعد جديد لاستكمال النقاش رفض خروجي وقرر أن يواصل الحوار مع صديقي، لكن دون أن يتحمس لأسئلتني بشكل كاف!!
كان ذلك قبل أن يقرر إنهاء اللقاء بطريقة مربكة نظرا لارتباطه بموعد مسبق' هكذا قال لي، لكنه أكد لي خلال اللقاء أن معرفته بالدكتور رءوف عباس قديمة.

ثم يواصل بينين سرد المحطة التي أنهت علاقته الشخصية برءوف عباس تماما قائلا: 'عندما عدت إلى القاهرة في أوائل التسعينيات كان الدكتور رءوف والدكتور نيللي حنا ينشطان في عمل ورش عمل وسمينارات علمية كثيرة، والتقيت معه وكان سعيدا بوجودي ولم أثر معه أية مشكلات خصوصا وقد التقيته خلال زيارة علمية قام بها لجمعية دراسات الشرق الأوسط في الولايات المتحدة ودعوته إلي العشاء في منزلي واللقاء مع طلابي، وكل هذا جعل العلاقة بيننا إيجابية حتى إنه دعاني للعشاء في منزله، لكنني اعتذرت عن عدم قبول الدعوة وقلت له إنني مضطر للعودة إلى إسرائيل لزيارة والدي المريض بالسرطان بناء علي إلحاح من أمي التي كانت تعرف رفضي لفكرة زيارة إسرائيل' وحين عدت - يواصل بينين - وجدت رءوف يتجاهلني تماما ويهيا لي أنه لم يكن يعرف شيئا عن كوني ابن لعائلة لاتزال تعيش في إسرائيل مع أن بعض هذه المعلومات كان معروفا في أوساط كثير من طلابي وأصدقائي لكن من غير المعقول أن أعلن عن ماضي لكل من التقي بهم.'

ومن جهته أكد لي الدكتور عباس حين اتصلت به لمعرفة رأيه في كتاب 'شوات اليهود المصريين' أهمية الكتاب من الناحية العلمية كما أكد لي الكثير من الوقائع التي حكاها جونل بينين، مشيرا إلي أنه بالفعل بدأ فعلا يتجاهل بينين تماما حين عرف أنه ممن يترددون علي 'إسرائيل'.

وأحالي من جديد إلي المقال الذي كتبه في صحيفة العربي في مايو الماضي، مشددا علي أنه لم يكن في الأمر موقف شخصي من جونل بينين، ولكنني استنتجت من أدائه علي مدي عام، خلال عمله مديرا لمركز دراسات الشرق الأوسط ما يكشف حرص الجامعة الأمريكية علي تمرير التوجه الجديد لإقامة علاقات مع أكاديميين إسرائيليين دون لفت الأنظار إليه إلا بعد أن يصبح حقيقة علي الأرض، فالرجل له صلات قديمة بمصر، واهتمام بها، ومعرفة بأحوالها، وله قبول عند بعض فصائل اليسار المصري، وله مواقف سابقة في اتجاه دعم توجه السلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين.

يقول رءوف في المقال شتان ما بين هذا النشاط الأكاديمي والسياسي الذي قرب بينين إلي بعض الأكاديميين العرب وبعض شخصيات اليسار العربي، وذلك الدور الذي يقوم به في الجامعة الأمريكية، وما أراه هو توظيف لهذه الخلفية الأكاديمية والسياسية لتمرير التوجه الجديد للجامعة الأمريكية دون إثارة الانتباه، فوجوده يضمن استكمال الخطة دون لفت أنظار الرأي العام المصري والعربي إلي ما يجري!.

بينين يرفض المناظرة كنت خلال اللقاء مع جونل بينين قد سألته هل يمكن أن يقبل بإقامة ندوة عامة حول كتابه بمشاركة مؤرخين مصريين متخصصين؟

فأجاب: أرفض ذلك، لأنني لا أعتقد أن لديهم ما يمكن أن يقدموه في هذا الموضوع، رغم أنني بحاجة لكي أستمع إلي ملاحظات حول الكتاب بما في ذلك من يقول لي بأن كتاباتي ليست لها قيمة، لكن بشرط أن يتم هذا بأسلوب علمي! من جهتي اتصلت بالدكتور إيمان يحيي الذي كان مرشحا لترجمة الكتاب لكي أسأله عن رأيه في مضمون الكتاب فقال لي:

'الكتاب مهم لكنه يتضمن أفكارا تستوجب الرد والتعليق وهو ما رفضه جونل بينين بشكل قاطع ومن بين هذه الأفكار المقولات التي يروج لها حين يساوي بين الخطاب الصهيوني والخطاب القومي العربي في موقفهما من اليهود المصريين، وهي مساواة بين خطاب الجاني وخطاب الضحية، وبالتالي فهي ليست في محلها، فضلا عن اتهاماته لكثير من المؤرخين المصريين بمعادة السامية، ومكمن الخطر حديثه عن ممتلكات اليهود المصريين وهي مداخل سياسية أكثر منها علمية لتناول الموضوع ولا يمكن فهمها إلا بتحليل الخطاب الذي يتبناه بينين في موقفه من الصراع العربي- الإسرائيلي، فهو في كتابه 'العلم الأحمر هل كان يرفرف هناك؟ السياسة الماركسية والصراع العربي - الإسرائيلي نشر بالعربية عام 1996 يدعو بوضوح إلي تفاهات يجريها اليسار الصهيوني مع اليسار المصري كوسيلة لحل الصراع!'

السؤال حول ميول الكاتب دفعني لسؤال الباحث الاقتصادي الدكتور سامر سليمان أستاذ الاقتصاد في الجامعة الأمريكية والذي كان من بين من ناصروا جونل في الحملة التي ثارت ضده فقال لي:

'تحمست للرد علي مقالات رءوف عباس لأنني وجدت فيها معلومات غير دقيقة تحتاج إلي تصويب وتشكل قدرا من التحامل' وتقديري أن جونل بينين ليس صهيونيا علي الإطلاق ولا تنطق علي أفكاره أية توصيفات صهيونية من

خلال متابعتي لها بل إن فيها تعاطفا كبيرا مع القضية الفلسطينية وتعرض لحمولات كثيرة جراء ذلك يمكن معرفتها علي مواقع إلكترونية جديدة!

كان الدكتور إيمان يحيي قبل أن ينهي حديثه أحالني إلي المشروع القومي للترجمة لأعرف سبب تراجع المشروع عن نشر الكتاب، مؤكدا أن جونل بينين اشترط علي المشروع القومي للترجمة ترجمة الفقرات العبرية في نص الكتاب بالعودة إلي مصادر عبرية من خلال التعامل مع مكتبة المركز الأكاديمي الإسرائيلي وهو أمر لا تقبله مؤسسات وزارة الثقافة!

شروط بينين الصعبة حين ذهبت للدكتورة شهرت العالم مدير التنسيق والمتابعة بالمشروع القومي للترجمة لأسألها حول الموقف الذي دفع المشروع للتراجع عن فكرة نشر ترجمة عربية لكتاب بينين قالت لي:

' رفض جونل بينين الاقتراح بأن يتولي رءوف عباس كتابة المقدمة للترجمة التي كان الدكتور إيمان يحيي قد بدأ العمل عليها واقترح بأن يقوم بذلك الكاتب الراحل محمد سيد أحمد، وبموت الأخير تراجع الحماسة لترجمة الكتاب، خصوصا وقد تابعنا الحملة التي دارت حول المؤلف في الجامعة الأمريكية، وقد فضلنا الابتعاد عن هذا الجدل ولاسيما أن بينين كان يرغب في فرض المزيد من الشروط التي لا تلائم المشروع، كما رفض قبول أي مترجم يأتي من طرف رءوف عباس كما أشار إلي وجود مصادر عبرية ينبغي العودة إليها عند الترجمة، فاقترحت عليه بأن نعتمد فيها علي مترجمين مصريين بالاستعانة بأصول المادة العلمية لديه ولم يكن متحمسا لذلك!

جونل بينين في حديثه حول الكتاب يشير إلي أنه حين لمس عدم حماسة المشروع القومي للترجمة للكتاب، بدأ يتلقي اقتراحات أخرى بترجمته من بينها اقتراح من محمد شكر الذي تلقي عرضا من دار الشروق بنشر الترجمة، وقد قبل العرض علي الفور، كما قال لي: ' لأن الكتاب بما يثيره من معارك كان بحاجة إلي دار نشر كبيرة تقف وراءه!'

قبل أن أتوجه بأسئلتني إلي رءوف عباس من جديد تذكرت ما قاله لي جونل بينين ليست المشكلة مع رءوف وإنما مع كل من يتبنون التفكير وفق معايير المدرسة القومية، فالكتاب ليس صهيونيا لكنه لن يرضي القوميين كذلك!

المؤكد أن الجدل حول الكتاب سيكون كبيرا لعله كان دافعا لقيام دار نشر كبيرة مثل دار الشروق دخول المغامرة ونشر الكتاب/القبلة، وهي المغامرة التي يؤكد سيف سلماوي، مسئول النشر بالدار، أنها ليست مغامرة علي الإطلاق وإنما خطوة تصب في عمل الدار التي تؤمن بأن لديها رسالة تنويرية تحدد منهج عملها، ومنذ أن صدر الكتاب بالإنجليزية ونحن نفكر في نشره وترجمته وعندما جاءتنا الفرصة لم نتردد علي الإطلاق!

ويتساءل سيف: مادام الجهد المبذول في الكتاب كان جهدا علميا بشهادة الجميع فلا توجد مشكلة علي الإطلاق، ونحن مع أي جهد يبذل في نقده أو النقاش حول قيمته، لكن النقاش حول أفكار الكاتب وميوله فهذا شأن آخر!

<http://www.jdhm.net/modules.php?name=AvantGo&file=print&sid=13152>